



د. عبد الحميد إبراهيم

الناقد الكبير الدكتور عبد الحميد إبراهيم

لـ «مجلة الأدب الإسلامي» :

- الوسطية الإسلامية منطلق للحوار مع الحضارات الأخرى - عالمية أدبنا نصلها عندها يحمل إبداعنا مضمون حضارتنا

أجرى الحوار : محمد زيدان

الدكتور عبد الحميد إبراهيم محمد، صوت نقدي متميز على الساحة الأكاديمية العربية، شغل منذ فترة بعيدة بالبحث عن نظرية عربية إسلامية في الرؤية الإبداعية تكون بديلاً عن النظريات الوافدة، التي أنتجت وثمرت في ديار غير الديار وفي أحضان فلسفات وقيم غير تلك التي نشأ المجتمع العربي عليها.

والدكتور عبد الحميد إبراهيم له أكثر من ثلاثين كتاباً حول الأدب ونقده، والحضارة العربية والإسلامية، من أهمها : الوسطية العربية (خمس أجزاء) وفيها قدم رؤيته في هذا المجال، كما أنه حاضر ودرس في العديد من الجامعات العربية والأوربية، وفي هذا الحوار يكشف لنا عن بعض قضايا الإبداع والنقد.

البيئة، ونهضت الواقع، ونهضت لظهور مجموعة أو ظهور قائد يمكن أن يبلور هذه النظرية في كيان حضاري متماسك، فنحن إذن وظيفتنا إنما تتلخص في مجال الكلمة والتجريد، وأنا أشكر رابطة الأدب الإسلامي العالمية على اهتمامها بهذا الموضوع. وفي هذا الصدد أذكر أنني منذ أكثر من عشر سنوات قد طرحت فكرة النظرية العربية من خلال كتابي الوسطية العربية الذي يتكون من خمسة أجزاء، وقد فكرت في هذا الكتاب عقب تخرجي من الجامعة مباشرة، وبعد أن درست على يد د. غنيمي هلال المذاهب الأدبية، التي أتت من الخارج (الكلاسيكية، والرومانتيكية، والواقعية... الخ)، ووجدت أن جهد الرجل يتمثل فقط في تقديم أو ترجمة الفلاسفة والمنظرين في الغرب والتطبيقات الغربية، فأخذت في مثل هذه السن المبكرة أتساءل :

كيف لا نستطيع مع هذا التاريخ الطويل أن نكون مذهباً أدبياً خاصاً بنا؟! .. ففكرت أن أكتب كتاباً حول عبقرية الصحراء، باعتبار أن الصحراء هي رمز للمنطقة العربية،

س : دعت رابطة الأدب الإسلامي العالمية إلى إقامة نظرية للأدب الإسلامي، منطلقة من التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان؛ لتقف في مصاف النظريات الأدبية العالمية... ما رأيكم في هذه الدعوة، وما السبيل الأمثل لصياغة هذه النظرية؟

ج : نعم... هي دعوة مباركة، ونحن نؤيدها، وإن كانت تأخرت في العالم العربي كثيراً؛ لأننا تركنا أنفسنا لنقع في مخالب الغرب ونفكر بتفكيره، ونستورد نظرياته، ونستورد أدبه، فالدعوة في حد ذاتها أتت في حينها ومطلوبة، خاصة وأننا أبناء حضارة لها تاريخها، ولها فكرها، وأثرها على المستوى الإنساني سواء في الأدب أو السلوك أو الفن أو الرؤى الحضارية لا ينكر؛ فهي دعوة تأتي في حينها إذن.

أما السبيل لإقامة هذه الدعوة، فنحن أصحاب الكلمة لا نملك إلا التجريد النظري، والكلمة كما يقولون سلاح خطير؛ فهي تمهد السبيل لإقامة هذه النظرية، فالنظريات وحدها لا تصنع بالكلمة، ولكنها جهود مطلوبة حتى نهض

زعم البعض أن مناهج النقد الأدبي جميعها تعتمد على أيديولوجية .. وهذا غير حقيقي

رواية عربية جديدة» فيه الشكل الأصيل في الرواية العربية الحديثة الذي هو استجابة لما تمر به الأمة العربية في حالتها الراهنة من البحث عن الهوية، وتابعت هذا الشكل الذي يتأثر برؤية عربية إسلامية، وسميته «الشكل الأصيل أو الشكل التاريخي»، وتابعت هذه التجارب في تونس عند محمود المسعدي، وفي فلسطين عند إميل حبيبي، وفي مصر عند الغيطاني ومحمد جبريل.

وجعلت عنوان الكتاب الثالث «نحو وسطية عربية» لأؤكد أن هذه النظرية لاتزال في مهدها، وأنه لا يمكن فرضها عن طريق التجريب النظري، لأن التنظير يحاول أن يستقري الواقع، وأن ينقل ملامح الواقع، وواقعنا الحاضر في الأمة العربية الإسلامية لا يدل على هوية مستقلة، فبعضنا قد انطرح نحو القديم يجتره كما يحلو له، وبعضنا قد ارتقى في أحضان الغرب يردد مقولاته ببلاهة، وكل هذا لا يعكس موقفًا حضاريًا، وإنما الموقف الحضاري أن نأخذ من الماضي وأن نأخذ من الغرب ثم تكون لنا إضافتنا الجديدة، فلو كنا صورة من الماضي لما اختلفنا عن الآباء، ولما استجبنا للإنجازات المعاصرة، ولو كنا صورة للغرب لكننا كالقردة التي تقلد سادتها وأصحابها.

أما الجزء الخامس من هذا الكتاب فهو رواية ألفتها على شكل رحلة إلى السماء، والتقيت فيها بالكثير من المنظرين وتحاورنا حول أشياء كثيرة، على شكل فكرة رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، أو شكل فكرة رسالة الخلود لمحمد إقبال.

فالواقع أن هذا الكتاب يمكن أن يكون مشروعًا للنظرية العربية الأصيلة التي تبحث عنها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ويمكن أن تكون فكرة الوسطية منطلقًا للحوار مع الحضارات القديمة، ومع الحضارات الحديثة، منطلقًا للحوار مع أفلاطون، ومع أرسطو، منطلقًا للحوار مع الوجودية،

فأخذت أقرأ في الشعر القديم، وفي التاريخ، وفي الفلسفة، وفي الترجمة، وفي مختلف أنواع الثقافات العربية والإسلامية إلى أن طرأ على ذهني أن الإنسان العربي حتى قبل الإسلام ... يرى الحياة بوجهين - واقعي، ومثالي - مادي، ومتدين - يرتبط بالأرض، ويرتبط بالسماء. ففكرتُ وأنا أقرأ سورة البقرة «وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس»، أن أغير عنوان الكتاب من «عبقريّة الصحراء» إلى «الوسطية العربية»، في الجزء الأول من هذا الكتاب حددت معالم الوسطية العربية، وكنت في تحديدي أريد أن أضع هذا المصطلح داخل التيارات الفكرية العالمية، لكي أثبت أن لدينا فكرًا صالحًا وحيثًا، نستطيع أن نحاور به الحضارات المختلفة، فقارنته في الكتاب الأول بوسطية أرسطو، وبوسطية أفلاطون، وبالمثنوية الفارسية، وبالمثنوية الصينية، وأنا من خلال ذلك أحاول ... أن أجده معالم تحدده، وتابعت هذا الفكر الوسطي في جذوره الأولى عند الخنفاء قبل الإسلام، ثم الإسلام حينما حوّل هذه الوسطية إلى تاريخ، وإلى حضارة، وإلى نظرية وتطبيق، ثم ... تابعت هذه النظرية عند أهل السنة، ممن يسمونهم أهل الوسط، إلى أن وصلت بها إلى مشارف العصر الحديث؛ فوجدت أن الاستعمار والتخلف الذي أحاط بالمنطقة العربية والإسلامية جعل هذه الوسطية تتوارى في بطون الكتب، وفي أروقة المساجد، وفي أرفف المكتبات، أما الكتاب الثاني فقد تابعت فيه تطبيق معالم هذه الوسطية على الأخلاق، وعلى الفن، وعلى الجمال، وعلى الأدب، وعلى اللغة، وعلى المنهج.

ومن خلال هذين الجزأين أو الكتاين أمكن تحديد الوسطية بمفهومها القديم، وكما قلت: حينما أتيتُ إلى مشارف العصر الحديث وجدتُ أن الوسطية قد توقفت، فكان الكتاب الثالث بعنوان «نحو وسطية معاصرة» أي دعوة إلى وسطية معاصرة، أو ما تسميه في سؤالك إلى نظرية جديدة. وحاولت أن أبلور هذه النظرية من خلال النموذج الإسلامي ومن خلال النموذج الغربي، وحاولتُ أن أصل إلى توليفة أو نظرية جديدة، بين هذين النموذجين وأطرحها في الزمان وفي المكان، لكي أبلور معالم مذهب وسطي جديد.

أما الجزءان الآخران وهما تحت الطبع، فهما «نحو



محمد جبريل



جمال الغيطاني

غير واقعي، فالاتجاه الحديث العالمي في النقد أيضاً يحاول أن يجرّد الأدب من الأيديولوجية، ويرى في الأيديولوجية عبئاً على الأدب، ومن هنا ظهر عن النقد المعاصر ما يسمونه بموت المؤلف في النقد، أي أنهم يدعون إلى التخلص من ظروف المؤلف النفسية، والاجتماعية، لكي يركز على النقد الأدبي، كشكل، أو كقماشة، أو كنسيج، بغض النظر عما يحتويه من مضمون أو غيره، فالقول بأن معظم النقد الأدبي في العصر الحديث يعتمد على أيديولوجية قول لا يتفق مع الواقع، لكن من ناحية أخرى، ما هو موقفنا من الأدب الملتزم . . . ، الأدب الملتزم وارد منذ أن عرف الإنسان الأدب، فالإسلام احتضن الأدب الملتزم الذي يدعو إلى مذهب وعقائده، والبرجوازية الأوروبية الغربية احتضنت الأدب الملتزم الذي يدعو إلى فكرها، والماركسية لها أدبها الخاص، والوجودية لها أدبها الخاص، الذي يعبر عن فكرها، واليهودية أيضاً، فالجماعات اليهودية المنتشرة في داخل أمريكا لها أدبها الخاص، والمسيحية في اليونان كما نرى عند «كازا نتراكس» لها أدبها الخاص الذي يعبر عنها، فالدعوة إلى الأدب الملتزم موجودة، بل يمكن أن يعبر عن موقف إنساني ناضج ومتأكد من ذاته.

ومن ثم انطلاقاً من هذه المقدمة التي ترى أن الأدب الملتزم موجود في الحضارات الأخرى، وعلى مدى التاريخ، نجد أن الأدب الإسلامي باعتباره أدباً ملتزماً لا يشذ عن هذا المجال، أما ضرورة أن يكون هناك منهج للنقد الأدبي الإسلامي - والسؤال غير دقيق - فإنه حقاً من الضروري أن يكون هناك أدب إسلامي، لأن الحضارة الإسلامية حضارة عريقة، لها رؤيتها، ولها نظرتها، وقد انعكست هذه الرؤية على مختلف المظاهر، ومعجزتها الأولى في الكلمة، وفي القرآن الكريم، ولا بد أن يكون لها أدب إسلامي، وكذلك نقد إسلامي، يكشف عن رؤاها المضمونية، وكيف أن هذه الرؤى تسربت بنوع من الصياغة الأدبية.

إذن المطروح أن يكون لنا أدب إسلامي ونقد إسلامي، أما المنهج فهو أداة علمية يمكن أن أستعيرها من المنطق الأرسطي مثلاً أو يمكن أن أستعيرها من البنائية في العصر الحديث التي تلجأ إلى الجداول والإحصائيات، وتلجأ أيضاً إلى المعامل وإلى المختبرات، للبحث عن الكلمة الأساسية التي تتردد في قاموس

ومع الماركسية في العصر الحديث، ولا نخجل، ولا نتهيب هذا الحوار، لأن لدينا من الإمكانيات ومن البذور الحية داخل حضارتنا ما يسمح لنا بهذا الحوار، وهذا عين ما قاله ابن قيم الجوزية في أحد كتبه وهو يشرح الوسطية قال: . . . بأن تأخذ الحق عن الطوائف المختلفة ولو كانت كافرة ولا تترك ما عندها من حق بسبب ما لديها من باطل، فالحكمة ضالة المؤمن - تأخذ الحق من هنا ومن هناك ثم تضيفه إلى نفسك، لكي يكون شاهداً على الناس، إشارة إلى الآية الكريمة ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾، فالوسطية حينما تأخذ الحق من هذه الفرقة، والحق من هذه الفرقة، والحق من الفرقة الثالثة، والفرقة الرابعة، فإنها في النهاية تتحول إلى شاهد، أو بتعبير عصري إلى نموذج يجد عندها أصحاب الفرق المختلفة الحق الذي يبحثون عنه، ويحولونه إلى شاهد عدل على الحقيقة التي يفتقدونها، كل منهم عند صاحبه، فأنا أقدر رابطة الأدب الإسلامي العالمية في هذا الاتجاه، وأعرض عليها هذا المشروع، وليس هناك حساسية في أن يكون المشروع طرح عليها باسم زيد أو عمرو من الناس، فنحن نبحث عن الحقيقة معاً، وأنا أقدم لها الوسطية كمشروع من عربي ومن مسلم، وهو في الوقت نفسه أحد أعضاء هذه الرابطة لكي تتبناه وتنميه.

اتجاهات حديثة :

تعتمد كثير من مناهج النقد الأدبي بما فيها المناهج الشكلانية على أرضية أيديولوجية، فهل ترون ضرورة أن يكون هناك منهج للنقد الأدبي الإسلامي؟

ج : أنا لي اعتراض على هذا السؤال، بالرغم من أن جميع مناهج النقد أو معظمها تعتمد على أيديولوجية، فهذا زعم

الشاعر، فالمنهج باعتباره منهجاً أداة علمية ليس حتماً أن تكون إسلامية، أو أن تكون غربية، فكما أنني أنقل السيارة، والإلكترونيات، والكمبيوتر، فليس عيباً أن أفيد من المنهج المطروح، وهذا الوهم، أو هذا الخلط جاء من أن بعض المناهج في العالم العربي تتحول إلى مذاهب، خذ مثلاً البنائية - في العالم العربي - تعبد الناس به وحولوه إلى طقوس وأصبح مليئاً بالغموض، وأصبح يحارب المناهج الأخرى، ويحارب التيارات الأخرى، فتحول من منهج إلى مذهب، وهذا هو الوهم الذي وقعنا فيه.

والخلاصة أن المنهج شيء علمي نفيد منه، وهو شيء يختلف عن النقد الأدبي، ويختلف أيضاً عن النص الأدبي.

رؤية إسلامية :

ما رأيكم في الدعوة إلى منهج إسلامي في الفنون الحديثة وخاصة في مجال القصة والرواية والمسرحية؟

ج : السؤال يجب أن يكون : ما رأيكم في رؤية إسلامية في الفنون الحديثة بدلاً من منهج إسلامي / لأنني كما قلت لك إن المنهج أداة يمكن أن نستعيرها من الآخرين، أما الرؤية الإسلامية فهي مطلوبة وضرورية، ويجب أن نجد في الكشف عنها إذا كنا صادقين في التعبير عن شخصية للأمة، لأنه بدون رؤية عربية إسلامية لن تكون لنا شخصية، وغير معقول أن حضارة عريضة ومترامية جغرافياً وتاريخياً لا يمكن أن تكون لها رؤية، وهي في القديم كانت لها رؤية، وقد كشفت عن هذه الرؤية في كتابي «الوسطية العربية» في الأدب وفي السلوك وفي الشعور وفي الأخلاق، ومن ثم يجب أن نلون هذه الرؤية في الوقت المعاصر برؤية إسلامية، فالذي حدث أننا في العصر الحديث حدث لنا استلاب في الشخصية العربية والإسلامية، فحينما ضغط الاستعمار على المنطقة وجعلها تترك جذورها وتتجه نحوه، أصبحنا نرى أن تاريخ الإنسان العربي لا يتعدى عشرات السنين حينما اتصل بأوروبا، فالقصة نبدؤها بعد اتصالنا بأوروبا، والمسرح بعد اتصالنا بأوروبا، والشعر يتغير إلى الشعر الحر بعد اتصالنا بأوروبا... لقد حصلت لنا نقلة مفاجئة وكأن تاريخنا الطويل أصبح في الظل، وكأننا مثل الشعوب المتخلفة التي ليست

لها جذور، فالرؤية لابد من أن نحتفي بها، ولا بد أن تكون لنا رؤية إسلامية للأدب، كما لنا رؤية إسلامية تدرس في الجامعات وفي المراكز وفي المؤتمرات وفي المعارض فيما يسمونه الآن باسم «Islamic Art»، أو ما يسمونه بالأرابيسك في مجال النحت والرسم، وفي مجال العمارة الإسلامية التي عرفها العالم عن طريق أسبانيا، وحتى الآن في أوروبا طراز من العمارات يعرفونها بأنها طراز إسلامي، في مجال الأرابيسك، في مجال الخط والفن التجريدي، وذلك موجود على مستوى العالم، فلا بد أن يكون لنا أدب إسلامي ورؤية إسلامية في القصة وفي المسرح وفي سائر الفنون، وصدقني لن نصل إلى العالمية إلا إذا كانت لنا رؤية إسلامية في أدبنا، لأن العالمية تبدأ من المحلية، ومن التعبير عن الخصائص الحضارية المميزة، فإذا استطعنا أن نعبر عن هذه الخصائص الحضارية المميزة، فإنه يمكن أن يكون لنا مكان في الحضارات المختلفة، لأنهم يجدون شيئاً مميزاً ينقصهم، أما إذا كنا صورة طبق الأصل من الحضارة الغربية، فإنهم سيقولون : هذه بضاعتنا ردت إلينا، وستكون هذه البضاعة مشوهة، وهذا هو السبب في أننا لم نصل إلى العالمية حتى الآن، بغض النظر عن الروايات الكثيرة التي ترجمت في المراكز الأوروبية والأمريكية، فإن هذه الروايات أو القصص أو الشعر يعتبرونها نوعاً من أدب العالم الثالث، ويدرسونه في أقسام آسيا وأفريقيا، مثل الأقسام الشرقية عندنا، دون أن يؤثر هذا الأدب على وجدان الإنسان الأوروبي المعاصر، وفرق كبير بين ترجمة تدرس داخل الجامعات الأوروبية ومحصورة بين الأكاديميين والمتخصصين، وبين ترجمة تدخل في ذوق الإنسان المعاصر، وتشيع في الكتب المتداولة، والتي يطبع منها الملايين. وبغض النظر عن جائزة نوبل العالمية فإن هذه لا تدل على أننا وصلنا إلى مرحلة العالمية، وإنما هي جائزة وراءها ظروف أخرى، فمتى نكون عالميين؟ يوم أن يكون المضمون، ويوم أن يكون الشكل يحمل رؤية الحضارة العربية الإسلامية، في هذه الحالة يمكن أن نتقل من المحلية إلى العالمية.

* * *

كثرت ربّ ذنوبي في الحياة
ومضى عمري بييد الظلمات
فارسل النور لقلبي في سبات
عشت أرجو منك ربّ الرحمات
يا رحيمًا فاض عفواً وهبات
فاغفر اللهم من قبل الممات
يا إلهي ...

ضاع عمري بين أمواج الذنوب
وبحار مـلأت كل الدروب
قلق الأفكار من فيض الذنوب
فارحم المسكين خير المستجيب
ماله غيرك علام الغيوب
رحمة الإيمان للقلب الكئيب
يا إلهي ...

تغسل الآثام من قلب كسير
خاشعاً يسجد لله الغفور
فاغفر الذنب عن العبد الصغير
واحمني بالصفح والعفو القدير
أطلب التوبة بالدمع الغزير
أنت من يشمل بالعفو الكبير
يا إلهي ...



شعر / يوسف عز الدين

♦♦♦ يا إلهي ♦♦♦

ركعات لك في الليل البهيم
تغسل الآثام من قلب كليم
وتناجي خالق الكون العظيم
تطلب العفو من الرب الرحيم
يا إله الكون والرب الكريم
توبة تدخلني دار النعيم
يا إلهي ...

ذُرِّيَّةُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ * «ولادة أحمد بن حنبل»

بقلم : د. علي شلق

شخصيات المسرحية :

١ - حنبل	جد أحمد لأبيه وسيد في قومه ، في الستين من عمره .
٢ - محمد	والد أحمد بن حنبل ، شاب في الثلاثين من عمره .
٣ - عبد الملك بن سودة	شيخ وقور ، ذو شخصية قوية ، في السبعين من عمره .
٤ - زوجة محمد	امراة في الخامسة والعشرين ، أم أحمد بن حنبل .
٥ - ثمامة	عالم بني شيان ، في الستين من عمره .

المشهد الأول

دوحة ، ولكن أظن يا ولدي أن الجهاد في سبيل

الله سبحانه ، موقوف على الحرب ؟

محمد : فيها مشقة ، والثواب على قدر المشقة .

حنبل : بناء البيت ، وإنجاب النسل الصالح ، وصلة

الرحم ، وبرّ الوالدين جهاد يا بني و . . .

(طرق على الباب)

حنبل : ادخل .

خادم : (يدخل) سيدي ، مولاي عبد الملك بن سودة

قادم .

حنبل : استقبل جدك استقبالا يليق بأخلاقك وشمائل

حنبل : أراك على شئ من الذهول يا ولدي ، ما هكذا

يكون الشاب الذي بنى بعروسه منذ شهر .

محمد : لا شئ مما ذكرت يا أبي ، سوى أنني أفكر في أمر .

حنبل : ما هو؟ سلمت لأبيك .

محمد : بنو شيان عدد الحصى ، لهم في الجاهلية منعة ،

ولهم في الإسلام بلاء مجيد ، «فالمثنى بن حارثة

الشيباني» قائد لهم في الجهاد ، ورائدهم إلى الجنة ،

وأنا . . .

حنبل : أنت!! ماذا؟

محمد : إن الزواج يحول بيني وبين الجهاد يا أبت ، لقد

نذرت نفسي للشهادة .

حنبل : حسن ، حسن ، بارك الله فيك ، أنت فرع من

* تتناول هذه المسرحية القصيرة عائلة حنبل ، ومكانتهم بين قومهم ، كما تتحدث عن القبيلة التي ينتمي إليها أحمد بن حنبل ، وهي قبيلة بني شيان ، ثم تصف أحوال والد ابن حنبل ، وتعلقه بالجهاد في سبيل الله ، حتى بعد أن عرف بأن امرأته حامل ، ويجري حوار بينه وبين أبيه بشأن الجهاد ، أو الإقامة بين أهله وذويه ، حتى تضع امرأته حملها ، فيبقى ، وتنتقل المشاهد في الحلقة إلى سيرة مولد أحمد بن حنبل ، والاحتفال بمقدمه ، وفرح القوم بمجيئه ، مع وصف للعادات المتبعة آنذاك حين تضع المرأة مولودها الأول . ثم تصف المسرحية سفر محمد والد أحمد للجهاد في سبيل الله ، بعد أن اطمأن إلى صحة امرأته وولده الرضيع ، كما تتناول ذكر الأحوال الاجتماعية والسياسية والفتوحات الإسلامية بشئ من التبسيط ، لإعطاء صورة صحيحة عن العصر الذي نشأ فيه أحمد بن حنبل .

شريف من شيان يا محمد .

محمد : جدي يحمل في ثوبه أرج الحمائل ، وفي طلعت بهرة الصباح ، أهلاً سيدي أهلاً .

عبدالمالك : (من بعيد ثم مقترباً) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حنبل : وعليكم من الله السلام ، والرحمة والبركات ، تفضل ، على الرحب والسعة ، أهلاً وسهلاً .

عبدالمالك : ما لمحمد ذاهلاً؟ وقد عهدته عريساً ، يتفجر نضرة وتوثباً؟

حنبل : قلت له ذلك من قبل ، وسألته ، فهل تدري يا سيدي بماذا أجاب؟

عبدالمالك : وهل الأمر يحتاج إلى أخذ ورد يا محمد؟

محمد : سيدي ، أرادني الوالد على أن أبني بشيبانية أختارها ، والطاعة تقتضي الامتثال ، لكنني ها أنذا منذ أكثر من شهر متخلف عن الالتحاق بالغزاة المجاهدين ، من رفاقي ، وإخوان الروح .

(عبدالمالك يضحك ضحكة خفيفة)

عبدالمالك : يا لك من برّ تقي ، ومجاهد وفي!! هذا فحسب؟

محمد : ألا يكفي هذا مثيراً للبلبال يا مولاي؟

عبدالمالك : وماذا قلت له يا حنبل؟

حنبل : قلت له إن الجهاد في سبيل الله ليس وفقاً على الحرب .

محمد : لكن هناك شيئاً آخر يؤرقني ، ويصرف همي .

عبدالمالك : أفصح ، وأرح نفسك ، وأرحنا .

محمد : حلم راودني في النوم ، فملاً قلبي شوقاً غامضاً ، حلواً ، سحرياً ، على قلق وتوزع بال .

حنبل : هات لنرى أحلامك من يقطتك .

عبدالمالك : أبوك أشهر مفسري الأحلام يا ولدي ، فلماذا تكتنم؟

محمد : أخشى إن أنا أفصحت عنه ، أن تطير حلاوته مع

الريح .

حنبل : إذن هو شيء جميل ، فأشركنا في سماعه ، حفظك الله يا محمد .

محمد : استيقظت ليلتنا عند منتصف الليل ، وفي قلبي حنين ، وبجوارحي خفة كأنني محمول على ريش ، فخرجت منسرباً برفق ، خشية أن تفيق زوجتي ، وقضيت وقتاً غير يسير أذرع خطاي في فناء الدار .

عبدالمالك : بادرة حسنة .

حنبل : ثم .

محمد : ثم تولاني سانح من نعاس ، كأنه النسمة بين الأوراق ، فعدت واتكأت في زاوية الحجرة كيلاً أزعج سكتي ، فغفوت ، وكان ذلك قبيل الفجر بقليل ، ورأيت كأن جداول خضراء سندسية تخرج من فمي ، ثم تشيع في الهواء والفضاء ، وهي بين أن تكون هواء أو ماء ، وأحسست لذلك بنشوة لم أعهد لها في حياتي ، ورأيت كأن الدنيا أصبحت مغمورة بتلك الجداول ، وغدت طيوراً بالغة الجمال والرونق ، تحط فوق أمواجها ثم تطير .

عبدالمالك : هاه !! ما هذا يا ولدي؟ ما هذا؟

حنبل : يا للبشرى !!! ثم تكتنم مثل هذه الرؤيا السعيدة يا محمد !!!

محمد : ماذا تعني يا أبتاه؟

حنبل : عالم بدين الله ، يملأ الدنيا علماً يخرج من صلبك ، ويكون واحداً من كبار شراح كتاب الله ، فَمُهُ فَمُكَ ، محشون نعمة .

عبدالمالك : الجداول الخضراء آيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبي الشريفة ، تخرج من فمك لتفيض على العالم ، إنه كلمة نقية فردوسية تقولها يا بني .

محمد : الحمد لله ، وشكراً له على نعمائه ، يا لفرحي ما أعظمه !!

حنبل : ألا تزال نادماً على الزواج أيها الغازي المجاهد؟

مسرحية

عبدالملك : ألا ترضيك بغداد، لتزج بنفسك في الأصقاع البعيدة وأنت لاتزال طرياً وعريساً؟

حنبل : ستعود إلى كتيبتك بعد أن تنجب ولداً، فتكسب الجهاد مرتين .

محمد : أرجو أن يتم الله نعمته علينا، وأن تتحقق الأحلام .

المشهد الثاني

(محمد، حنبل، زوجة محمد، خادم)

حنبل : أراني على خير ما يرام صبيحتنا هذه .

محمد : أرجو أن تكون أيام سيدي الوالد، صبيحات موصولة المباحج .

الزوجة : لا أدري والله كيف أن الدنيا لا تسعني من الفرح، وأنا أكاد أضع الولد الأول، وعادة النساء أن يخشين الولادة الأولى؟

حنبل : أسأل الله لك ولنا يا بنتي، أن يجعل ما فيه الخير والسلامة زيتاً مضيئاً في بيتنا ولو لم تمسه نار .

محمد : بغداد باب يمن وإقبال يا أبت .

حنبل : على أنني أحببت البصرة، وكنت والياً على «سرخس» من خراسان، فذقت حلاوة الدنيا، وعرضني الميل إلى بني العباس ودعوتهم إلى سخط الأمويين وتعذيبهم، إلا أن بغداد أنستني كل بلاء مر، وأرجو من الله سبحانه أن يسبغ آلاءه وأن يجعل المولود القادم بشيراً بالخير .

محمد : ذاك ما أتوسل إلى الباري سبحانه بشأنه، وأضرع إليه أن يقرّ به عيني أبوي .

حنبل : سمّ يا محمد .

محمد : سمّ أنت يا أبي .

حنبل : للآم الحق في التسمية .

الزوجة : في فمي حلاوة اسم «أحمد» إن كان ذكراً، وبشرى أو يسرى إذا . . .

محمد : «مقاطعاً» . . . كان أنثى .

حنبل : كلاهما خير . . ماذا تقول يا محمد؟

محمد : ولد واسمه أحمد .

حنبل : وإن كان أنثى؟

الزوجة : يحج سيدي العم على نفقتي إن كانت أنثى .

حنبل : وتحجين أنت ومحمد على نفقتي إن كان ولداً .

محمد : هذا جيد، والله يضاعف لمن يشاء، وحدي من بينكما الرابع .

حنبل : ولكما بستان الأسرة في الرصافة .

محمد : ها . . . هذا كثير يا والدي، كثير .

حنبل : المولود الآتي جواب آفاق، عابر فلولات، فقد حملت به أمه في «مرو» وعرج على الكوفة، وحل في البصرة، واستقر ببغداد .

محمد : ومع ذلك . . .

حنبل : ماذا؟!

الزوجة : ومع ذلك فقد أمسكت زوجة محمد بن حنبل الشيباني جنينها، فلم تطرح .

حنبل : الشيبانيات ولودات، يسكن الأجنة، ويخصبن اللبن .

محمد : من قال يا أبت؟ «إذا كنت في ربيعة فكأثر بشيبان، وفاخر بشيبان، وحارب بشيبان»؟

حنبل : قول شاع يا ولدي كالهواء والشعاع، أظن أنه للخليفة عمر، عندما أشار مع الأمير «سعد بن أبي وقاص» - رضي الله عنهما - أن يبني البصرة، فنزلتها جموع شيبان، وذلك بعد بلائها تحت إمرة «المثنى» في حرب الفرس، قبل إمرة «سعد» .

محمد : وفيها بنى ذوونا مسجد «مازن» .

حنبل : أولئك أبائي فجنّني بمثلهم . . إذا جمعنا يا جرير المجامع

محمد : زهو وخيلاء في الإسلام يا أبت!!

حنبل : زهو وفرح ببناء مساجد يذكر فيها اسم الله .

الزوجة : وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

حنبل : بارك الله ليبي بمن فيه، له الحمد والشكر على كل حال .

المشهد الثالث

(حنبل، ثمامة، جارية، خادم، محمد، زوار مهتتون)

جارية : سيدي، سيدي محمد.

محمد : ماذا وراءك؟ بشري!

جارية : سيدتي وضعت.

حنبل و محمد معاً : وضعت!!! الحمد لله.

حنبل : ما... ماذا؟ هل...

محمد : الحمد لله، صرتُ أباً.

حنبل : زاد قدرك في عيني أيك، أترى؟

محمد : أصبحنا نتحدث عن أمور العائلة، وبذا خفت

صوت الحديث عن الجهاد.

حنبل : الآن، يستطيع القائد المجاهد أن يذهب لطيته.

محمد : أذهب لأرى الطفل، هل... هو...

حنبل : إياك يا ولدي، فليس في بني شيبان من يقول

«ليس الذكر كالأنثى»، فالكل نعمة من الله

سبحانه.

محمد : أستاذن الوالد لأطمئن على زوجتي والولد.

حنبل : في رعاية الله وحفظه يا ولدي.

خادم : مولاي، ثمامة قادم.

حنبل : قصد أهلاً، ووطئ سهلاً، علامة بني شيبان،

ثمامة.

ثمامة : السلام على ابن العم، ومن يلو ذبه.

حنبل : عليك من الله سلام ورحمة، طائر يمن، وبشير

سعد.

محمد : (من بعيد) أبت «ثم مقترباً» ثمامة يا ابن العم، لا

تؤاخذني، فقد شغلني المولود فلم ألق التحية.

ثمامة : خير ولد لخير والد.

حنبل : كيف رأيته يا محمد؟

محمد : أحمد، يا والدي، وجهه كزيت المشكاة، فيها

مصباح، يكاد يضيء ولو لم تمسه نار.

حنبل : وأم أحمد يا محمد؟

محمد : على خير ما يرجى، وذلك من رحمة الله، والآن

...

حنبل ، مقاطعاً : جعل الله لك في كل آن خيراً، ماذا يا

بني؟

محمد : أترك لكم في البيت رجلاً، وألتحق بإخواني.

ثمامة : ألا تلبث أياماً، والضيف قد يستوحش؟

محمد : الضيف أصبح رب البيت، وكلنا في ظل حنبل بن

هلال.

حنبل : رافقتك السلامة، ادن لأقبلك، لا تجعل غربتك

طويلة يا ولدي.

محمد : ادع لنا يا ثمامة.

ثمامة : النور في قلبك، والعزيمة في دمك، ورؤية الحق

بين عينيك، والله سبحانه يحوطك بالعناية.

محمد : والآن أستودعكم الله ربي.

الاثنان : رافقتك السلامة يا محمد.

حنبل : قلت لك إنه لا يتراخى عن الجهاد.

ثمامة : كان الله في عونك، قل يا ابن عم.

حنبل : ماذا، فديتك.

ثمامة : أين نحن من العام؟

حنبل : السادس من ذي الحجة، في الثالثة والستين بعد

المائة من هجرة رسول الأنام.

ثمامة : عليه وعلى النبيين والمرسلين أزكى التحية

والسلام.

حنبل : وفيم سؤالك؟

ثمامة : ما عهدت شجر الرصافة يزهر كهذا العام.

* * *

شعر

إنهم يسرقون القدس من معجم البلدان !!

شعر / د. سعد دعيس *

أين تمضي بنا .. رياح الهوان ..
ضائع .. في متاهة الأزمات ..
للمنافي .. وغربة الأوطان ..
حسبما قيل .. كنت بنت ثمان ..
في صحارى الهوان .. ثون بيان ..
أين ألقى بيان تلك المعاني :
وانتم ماءً لمسجد وأذان ..
نسي القدس .. «معجم البلدان» ؟
لبلال الإسراء والإيمان ؟
أين ألقى بيان تلك المعاني ؟
صار منقاه .. داخل الأوطان ..
قيضه .. عبر هذه الأكوان ..
لاندماج السماء بالإنسان ..
حصرت بالقيود والقضبان ..
مستباحاً .. لليوم والغربان ..
وأطلي .. فال فجر في الأفق داني ..
عن حدود البلاد والأوطان ..
عن زمكان لمولد ومكان ..
وابحثوا .. في معجم القرآن !!
طين .. «بياب» الإسراء .. جم المعاني ..
مفردات التزييف والبهتان ..
والبقايا .. معروفة العنوان ..
مفردات التحرير للأوطان ..
في سيقاق من ذلة وهوان ..
هو باب الجهاد والإيمان ..
في صلاة .. ومدقم .. وأذان ..
نهر ضوء مجنح الشيطان ..
وربي .. مموسق الألوان ..
فابحثوا في معجم القرآن ..

سألتني .. في ثورة الأحزان
عصفت بي ريح النوى .. ذات يوم
منذ أدركت .. أنني صرت رملاً
رقماً .. صرت في الخيام .. وعُمري
مولدي .. نشأتي .. حياتي .. رمال
سألتني .. والدمع في مقلتيها
وطن .. أسرة .. صحاب .. وأهل
أترى .. زيقوا المعاجم حتى
أين ألقى في معجم اليوم .. رسماً
وطن .. مسجد .. أذان .. صلاة
آه .. يا أدمع الغريب .. إذا ما
أين مسرى الضياع .. حين تهادى
حين كانت مآذن القدس بدءاً
لانطلاق الضياع .. في كل أرض
كيف أمسست حدائق الضوء وكراً
يا ابنة الحزن والنوى .. لا تراعي
حينما تسألين .. في أي أرض
عن بيانات موطن وانتماء
فأجيبني .. دعوا المعاجم تهذي
رئماً .. تبصرون «فضل» فلس
رئماً مفرداته .. ليس فيها
مفردات «الشجب» التي قد ألفتنا
وطني .. حيث معجم القدس يجلو
معجم .. لا تبين فيه المعاني
كل ألفاظه تعود لباب
وأصول «اشتقاقه» .. في ثلاث :
وطني .. قد وجدته .. هل رأيتم
ذاك قدسي .. ذاك الزمان اخضراراً
وطني .. حيث سورة «الإسراء»

* شاعر مصري معاصر، صدر له خمسة دواوين شعرية أحدثها ديوان: حوار مع الأيام، عمل في عدد من الجامعات العربية أستاذاً ورئيساً لقسم اللغة العربية.